ملتقى أدبي وثقافي أصيل في الشرق الأوسط

شرمولا

مجلة أدبية ثقافية فصلية العدد ٢٥ شتاء ٢٠٢٥

- الثقافة السورية من القمع إلى التعددية.. رحلة بناء الهوية في مواجهة الاستبداد
- حوار العدد مع الكاتب فارس عثمان

الأدب والثقافة.. في سوريا الجديدة

- جدليات الواقعي والميتافيزيقي وفضاءات التشكيل السردي في الرواية العربية الجديدة
- خطاب وحدة الوجود في التجربة الشعرية

صورة الغلاف: رودي حلو

محتويات القسم العربي

الافتتاحية

. الأدب والثقافة في سوريا الجديدة.. (هيئة التحرير) ٤

ملف العدد (الأدب والثقافة في سوريا الجديدة)

. الثقافة السورية من القمع إلى التعددية.. رحلة بناء الهوية في مواجهة الاستبداد..(عبدالوهاب بيراني)..... ٦

. حق التعلم باللغة الأم.. (بيمان بيري)..... ٩

. خطاب التطرف والكراهية بين المكونات السورية.. (رفيق إبراهيم)..... ١٢

حوار العدد

. مع الكاتب والمثقف الكردي السوري فارس عثمان.. (أجرى الحوار: دلشاد مراد)..... ١٥

دراسات

. خطاب وحدة الوجود في التجربة الشعرية.. (أحمد حمدينو محمد)..... ٢١

كتب

. قوّة النصّ التاريخي لا تغني عن قوّة الإرادة الدوليّة.. (فراس حج محمد)..... ٣٠

. جدليات الواقعي والميتافيزيقي وفضاءات التشكيل السردي في الرواية العربية الجديدة..
قراءة نقدية في رواية «البرُلُسِيّ» للروائي سعيد شحاته.. (د. محمد عبدالله الخولي) ٣٤

. تجليات العادات والتقاليد الشيشانية في رواية «دمعة ذئب» .. (د. محمد حسين السماعنة)..... ٤٠

. إصدارات الكتب.. (هيئة التحرير) ٤٦

ترجمات

. هجرة جسد .. (بير رستم، ترجمها عن الكردية: آرام حسن) ٧١

نافذة حرة

. الإبداع العائليّ في الأدب ظاهرة مُتفرّدة ومُتميّزة.. (وفيق صفوت مختار) ٥٠

قصة

. عمامة خضراء.. (د. أيمن الداكر) ٥٦

. شجرة سُكّر.. (مراد ناجح عزيز) ٥٩

. امرأة لا تجيد الرقص.. (متولي بصل) ٦١

. على قيد التضحية.. (سردار شريف) ٦٦

قصائد

. مجدداً .. (فرهاد دريعي) ٦٩

شباب وأدب

. انبعاث .. (دعاء بوسنا) ٧١

قوّة النصّ التاريخي
لا تغني عن قوّة الإرادة الدوليّة

فراس حج محمد*

من الكتب التي قرأتها خلال فترة الحرب الأخيرة على غزة (٢٠٢٣- ٢٠٢٤) كتاب «غزة حجر الزاوية»(١) لمؤلفه جوني منصور(٢)، مؤرخ حيفا كما أطلق عليه ذات يوم صديقي حسن عبادي(٣). تزامنت قراءتي للكتاب مع حضور حلقة بودكاست مع مؤلفه (٩ نوفمبر ٢٠٢٤)، سمعته وهو يتحدث لما يقارب ساعة ونصف، فيعيد سرد قصته الشخصية مع النكبة التي حدثت عام ١٩٤٨، التي هي بضرورة قصة كل فلسطيني تم اقتلاعه من بيته وأرضه وجذوره. لقد كانت النكبة حدثاً مؤلماً بالفعل وبالنتيجة. وبالمنطق التاريخي فإنها كارثة.

لم يكن صلب النقاش الحواري مع مرام مصاروة(٤) موضوع غزة، والحرب عليها، كان النقاش منصباً على عمل منصور التاريخي، والتأريخ لأحداث المأساة الأولى، لكنه لم يكن ينسى غزة، فكان يحيل إليها أحياناً، لأن ثمة ما هو متشابه بين الحدثين.

* كاتب فلسطيني من مدينة نابلس، أصدر أكثر من (٣٠) كتاباً، ينشر في عدة صحف ومجلات عربية.

كتاب «غزة حجر الزاوية»، بطبيعة الحال كله عن غزة وأحداثها، ونكبتها الجديدة، لكنه يضع الأحداث الحالية في سياقها التاريخي المتخلق منذ تصريح بلفور (١٩١٧)، بل منذ اتفاقية تقسيم إرث الإمبراطورية العثمانية المعروفة تاريخياً باتفاقية سايكس بيكو (١٩١٦)، فلم يقسّم الوطن العربي هذه التقسيمة إلا من أجل الأطماع الاستعمارية في خلق جسم غريب في قلب الأمة يحول دون وحدتها ونهضتها وبناء قوتها الذاتية. فاخترع «الكيان الغاصب» ليؤدي تلك المَهمّة.

بدت هذه الفكرة الاستعمارية مسيطرة على الكتاب وموضوع نقاش الحرب، وتدمير غزة بلا هوادة، والعمل على جعل القطاع منطقة استعمار خالية من السكان، خدمة لأهداف استعمارية إستراتيجية، وبهذا يفسر على نحو معين في جزء من الكتاب وفي بعض مقولاته الدعم غير المحدود لآلة البطش الصهيونية، وإطلاق يدها فيما تفعله، وقد أعطتها تصريحاً مفتوحاً بالبطش كل الدول الاستعمارية الكبرى ومن يدور في فلكها، مشكلةً تحالفاً ضد غزة وأهلها، ويقف على رأس هذا التحالف أمريكا زعيمة الشر في العالم ومعها دول أوروبية كثيرة.

يرصد الكتاب ١٨٠ يوماً من هذه الحرب، وما بعدها ما هو إلا تعميق لما جاء في هذه الأيام واستمرار له، وقد تجاوز العدد الـ (٤٠٠) يوم، وينحاز المؤلف، كما ذكر مراراً وتكراراً في حلقة البودكاست إلى شعبه وقضيته، ويدين هذه البربرية الاستعمارية، وهذه الهمجية الغاشمة في التعامل مع الفلسطيني، ويؤكد حق الشعب الفلسطيني في المقاومة والتخلص من الاحتلال، ويعود بالحرب إلى ما قبل السابع من أكتوبر، حيث النكبة الأولى، وستة وسبعون عاماً من الاحتلال والسيطرة، وبهذا فإن حلقة البودكاست تلك تشكل أهمية لافتة للنظر في فهم أفكار جوني منصور، المبنية على التسلسل التاريخي، وبناء سردية تاريخية متماسكة، مستندةً إلى الحقائق التي لا يستطيع عاقل أن يتغاضى عنها، فهو يرى «أننا في حرب روايات» مع المحتل، وكل أحداث هذه الحرب ما هي إلا نوع من تغاضي الغرب الاستعماري عن حقائق التاريخ وحق الشعب الفلسطيني في أرضه، وحق تقرير مصيره بنفسه دون أن يكون خاضعاً لهذا النوع من الاحتلال الإحلالي الاستيطاني غير المعترف بالفلسطيني، ويصر على إلغائه، قتلاً وتشريداً وطمساً لهويته، واحتقارا في معاملته، بحيث لا يرى الفلسطينيين– في غزة وفي غيرها– سوى أنهم «حيوانات بشرية»، يحق له التخلص منهم، فهم خارج السياق الحضاري بهذا الوصف الذي ينزع عنهم فيه الصفة الإنسانية.

يعد الكتاب مهماً، لأنه استقى مادة معاصرة، تبين مدى تفاعل العالم معها من وجهات نظر مختلفة، مع أنه أكد السردية الفلسطينية للأحداث بطريقة واضحة للغاية، بحيث يخرج القارئ بأفكار متصلة ذات أهمية سياسية وتاريخية، وجمع من أجل هذا الغرض كثيراً من المواد والمقابلات، والأفكار، وحللها، وانتقد كل ما من شأنه أن يشوش السردية التاريخية الفلسطينية، مفنداً وداحضاً آراء الآخرين، ومفسحاً لأصوات كثيرة متنوعة تعبّر عن رأيها في «الحدث الفلسطيني» في غزة. جاءت هذه الأصوات من جميع أنحاء العالم، من فلسطين، ومن غزة تحديداً، حتى أمريكا، ومن سياسيين وإعلاميين ومثقفين ومحللين، وأخبار صحفية، ومقالات ودراسات، ومدونات شخصية، وفيديوهات، كلها ناقشت

أفكاراً متعددة في سياق الحرب على القضية الفلسطينية بعموم الجغرافيا الفلسطينية (فلسطين التاريخية).

إلا أن هذا التنوع البحثي الكبير والمتشعب غاب عنه مسألة تقييد الحرية في الغرب «الديمقراطي»، في المجال الأكاديمي البحثي والعمل، فقد تعرّض مناصرو فلسطين إلى إجراءات تعسفية متعددة في أماكن عملهم فيما عرف بالقمع الأكاديمي، فهم يعيشون «فترة مكارثية أكاديمية» كما قال د. ضرغام سيف(٥) في مقابلة له في برنامج «للقصة بقية» التي بثته منصة الجزيرة ٣٦٠، ودفعوا أثماناً شخصية كبيرة نتيجة مواقفهم الشجاعة المتضامنة مع الحق الفلسطيني.

ومهما يكن من أمر، تبقى لهذه المواد التي جمعها جوني منصور في كتابه هذا أهمية لا تُنكر في تنوعها ومدى دلالاتها على أفكاره التي يريد أن يثبتها إلى درجة أنها يمكن أن توصف بأنها مواد شارحة نفسها بنفسها لا تحتاج إلى أن يفسرها أو يعيد فيها النظر للاستنباط والتدليل، وهذا يظهر سعة اطلاع الباحث من جهة، ومن جهة ثانية قوة المادة على الدلالة التاريخية والسياسية، بحيث لم يكن محتاجاً، ولو في مرة واحدة إلى ليّ عنق النص أو الحادثة ليشتق منها ما يريد من أفكار. ومع التسليم بقوة النصوص التي استند عليها الباحث إلا أنها لم تكن لتغنيَ عن قوة الإرادة الدولية التي لم تكن تريد أن تفعل شيئاً من أجل إيقاف الحرب، وإيقاف شلال الدماء المتدفق على رمال غزة من شمالها إلى جنوبها.

ومن جهة أخرى، فقد جعلت هذه الحرب الأفكار عارية تماماً، ومباشرة، ولا تلاعب فيها، كما يبدو من النصوص والاقتباسات الواردة في الكتاب، يبدو أن في هذا استنباطاً واضحاً أيضاً لمن يدقّق في تلك المتون، فيرى وضوح أفكار الناس في الحرب، كأنهم في هذا الظرف لا مجال لهم ليكونوا غامضين أو مواربين مراوغين، إن المواربة على ما يبدو من أعمال السياسيين في فسحة الوقت؛ في فترات الهدوء، وليس في فترات الحروب. هل هذا استنتاج قويّ لنصوص الحرب؟ أعتقد أن مادة هذا الكتاب تجعله وجيهاً ومناسباً وقوياً إلى حدّ كبير، وليس فقط النص السياسي ما يتسم بالوضوح في الحرب، بل إن النص الأدبي كذلك، فهو يدخل إلى معمعة الحرب بقوانين كتابة خاصة، تختلف عن قوانين الكتابة أيام السلم وعلى ذلك كثير من الأمثلة، وسبق أن ناقشت ذلك في وقفات أخرى.

في الصفحات الأخيرة من الكتاب، يخصصها المؤلف لاستعراض دعوى جنوب أفريقيا في محكمة العدل الدولية ضد الكيان الغاصب في تهمة «الإبادة الجماعية»، ويقف عند المحاكمة ودلالاتها وما قيل فيها، والمعارضين لما تمخضت عنها، والذين رأوا فيها إيجابيات كثيرة، والمؤلف من هذا الفريق، فيستعرض كثيراً من النقاط التي يراها في صالحنا نحن الفلسطينيين، وعلى الرغم من الوضوح الكبير للنص القانوني المعروض في تلك المحكمة، إلا أنه كذلك كان يفتقر إلى «قوة الإرادة الدولية» ليكون فاعلاً على الأرض، بدليل أن الوحش بآلته الجبارة ما زال فاغرا فاه على مدى أكثر من (٤٠٠) يوم من الحرب، يلتهم الأرواح فيها بشهية غير مسبوقة باعتراف المؤلف نفسه في مواقع متعددة من الكتاب، وكل ذلك يرجع إلى النزعة الاستعلائية الغربية التي ينظر فيها إلى أهل فلسطين بخاصة، وكل الشعوب التي استعمرها بعامة، فهذا الغرب ما زال يتحرك بناء على «نظرية التفوق العرقي الغربي».

أظن أن الكتب التي تناقش الحروب، لا سيما الحرب على غزة، كتب ذات مَهمّة صعبة ومعقدة، نظرا لعدة عوامل أهمها تشابك السياق التاريخي المحلي مع العالمي، وتعقيده الفكري المفضي إلى نقاش العمل الأخلاقي والنظريات الفلسفية والتاريخية المستندة إلى مجموعة من الأخلاقيات العامة والقوانين الدولية، بحيث يجب أن يكون الضمير عالي الحساسية إلى درجة مرهفة جداً، لما في هذه الحرب من ضحايا بأعداد كبيرة، جاءت تلك المنظومة في الأساس لحمايتهم، وإذ بها هي نفسها تجعلهم لا شيء، وتسمح بألا تراهم عين الكاميرا، والحقيقة تتجاوز عنهم، وتجعل الحق وحده للاحتلال في أن يدافع عن نفسه من الأطفال الرضّع والخدّج والنساء وأرتال من المرضى والمدنيين الذين ليس لهم دخل في هذه الحرب، ولا تعطي حقوقاً متساوية للفلسطينيين الذين يتعرضون إلى كل أنواع الانتهاكات الصارخة للقوانين الدولية.

هنا يقف الضمير العالمي والأخلاقيات في أزمة كبيرة،

ليست سياسية فحسب، بل أزمة فلسفية، تطيح بكل تلك المنظومة المدعاة التي لم تستطع إنقاذ شعب يُباد، وتشاهد إبادته يومياً في بث حي ومباشر، فيعمى عنها العالم، ويتمسكون في حق الآخر المحتل الغاشم القاتل في الدفاع عن نفسه من الناس الذين يسيطر عليهم ويذلهم ويقتلهم، ويسعى بكل قوته لأن يرحلهم، هذا المنطق الموازي الذي يدينه بشدة مؤلف الكتاب جوني منصور، فقد حطمت هذه الحرب كل القواعد والأخلاقيات التي بناها فلاسفة المجتمع الدولي وساسته بعد فظائع الحرب العالمية الثانية، فتقهقر العالم إلى ما قبل عصر التنوير الذي يدعيه، وأكل تلك الدساتير، بل وبال عليها دون أن يشعر بالخجل أو بشيء من منطق وإنسانية.

وفي كلمة أخيرة أقول:

إن هذا الكتاب يضاف إلى مجموعة من الكتب ذات «الاهتمام المشترك» في سعيها لتوثيق جانباً من جوانب هذه الحرب، لتكون شاهدة على أعظم جريمة ترتكب في القرن الواحد والعشرين– جريمة الجرائم كما أسماها المؤلف– بعد أن قطع العالم أشواطاً من التقدم والتمدن، ولكن على ما يبدو أن هذا التمدن الحضاري بائس وفارغ ولا يعني شيئاً، ما دام أنه لا ينظر إلى الضحية إلا بمنظار المجرم المتغطرس المحمي بقوة الإرادة الدولية، مع أنه لا يفتقر إلى قوة النص التاريخي أو القانوني، وعليه لا بد من أهمية حضور المقولة الكلاسيكية في هذا النوع من الصراع قوة الحق لن تغني وحدها عن حق امتلاك القوة، لأنه كما أثبتت هذه الحرب فإنّ الغرب المتغطرس، بما فيه الكيان الغاصب، لا يفهمون إلا لغة القوة، وعليه سيظل سعيهم ألا نكون أقوياء، ويسعون دائما في كل تسوية سياسية عقب كل حرب إلى تجريد المقاومة من سلاحها، وتفكيك محاورها، لتظل الأمة مشرذمة، ومنقادة لرغبة العقل الاستعماري المريض الذي يريدنا أتباعاً أذلاء ننفذ رغبته، ونعيش على «فضلة خيره» بعد أن سرق الأرض وخيراتها وأرواح ساكنيها.

الهوامش:

(١)– صدر الكتاب عام ٢٠٢٤ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، وقدّم له د. إيلان بابيه، وهو يساري «إسرائيلي» مناصر لحقوق الشعب الفلسطيني، ينتمي إلى تيار المؤرخين الجدد، مقيم حاليا في المملكة المتحدة، أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية والدراسات الدولية بجامعة إكسيتر.

(٢)– مؤرخ فلسطيني، ولد في حيفا عام ١٩٦٠. محاضر في قسم دراسات التاريخ في الكلية الأكاديمية في بيت بيرل. متخصص بتاريخ الشرق الأوسط الحديث، له اهتمام بتاريخ فلسطين الحديث والمعاصر، والقضية الفلسطينية، وتاريخ المدن الفلسطينية وخصوصاً حيفا.

(٣)– كاتب ومحامٍ من حيفا.

(٤)– تحمل لقب الدكتوراه، باحثة وأكاديميّة فلسطينيّة. عضو هيأة تدريس في أكاديمية القاسمي.

(٥)– حصل على الدكتوراه في مجال القانون الدولي من جامعة Georgetown University في واشنطن في الولايات المتحدة، محاضر منذ العام ٢٠١٤ في مجال القانون الدولي في جامعة القدس.